مَيّ زيادة

سيرتها وأبرز منجزاتها[1]

(١٨٨٦–١٩٤١)

نشأتها

وُلدت ماري زيادة في مدينة الناصرة– فلسطين– في يوم الحادي عشر من شباط سنة ١٨٨٦. والدُها، الياس زخّور زيادة من بلدة شحتول في قضاء كسروان، مارس التعليم في الناصرة، ثمّ الصحافة في القاهرة. أمُّها نَزْهة معمَّر، فلسطينيّة الأصل، راقية، تهوى الشعر العربيّ.

بدأت دراستها في مدرسة الراهبات في الناصرة، ثمّ انتقلت، وهي في عامها الرابع عشر، إلى مدرسة راهبات الزيارة في بلدة عينطورة في قضاء كسروان. وتميّزت، كطالبة، بحسّها الموسيقيّ، وبميلها إلى الغناء والخطابة والشعر والتمثيل.

رافقت الكآبة هذه الطالبة منذ طفولتها. طارت فرحًا، وهي في عامها الرابع، لمّا وُلِدَ أخوها. ثمّ استولى عليها الألم لمّا فقدته بعد سنتين. وظلّ شبح الموت مخيّمًا على كتاباتها في ما بعد.

ما كان دخولها مدرسة عينطورة، بعيدًا عن أهلها، وكانت وحيدتهم المدلَّلة إلى ما يشبه العبادة، إلّا ليزيد في كآبتها وشعورها بالغربة حتّى عن نفسها.

تلميذة عصبيّة

في المدرسة اشتُهِرَت بغرابة أطوارها، وسرعة انفعالها، وحدّة ذكائها، وبُعد طموحها، ورهافة حسّها، وأنس عشرتها. كانت منعزلة الروح، تنزح عن ساحة اللعب مع رفيقاتها، إلى ناحية نائية تطلّ على البحر، فتراقب السفن "وقد تضاءلت بشاسع المسافة، مارّة في تلك الزُرقة القصيّة، تاركة وراءها خطًّا طويلًا لا تَعَرُّج فيه، فتُمعن في تفحصّ ذلك الخطّ المستقيم، كأنّما هي تقابل بينه وبين خطّ آخر رسمه في داخلها مرور سفينة من سُفن أحلامها شقَّت أمواج نفسها العميقة".

وتمويهًا عن كآبتها كانت تبتكر للهو أساليب طريفة. لكنّ رفيقاتها كنّ يدركنَ محاولات ارتياحها المصطنَعة.

---

[1] جبر، جميل، "سيرتها" في **مَيّ زيادة في سيرتها وأدبها**، الطبعة الأولى، بيروت، مؤسّسة نوفل، ٢٠٠٦، ص ٥–٢٠.

كثيرًا ما كانت ماري، في خلوتها مع نفسها، تتنهَّد وتشكو وتكتب، وتحسد العصافير المرفرفة على الأشجار المحيطة بالمدرسة تزقزق على هواها ولا تراعي موجبات اجتماعيّة، ولا تحترم القوانين الصارمة.

ذات يوم عادت الطالبة المتمرِّدة من الغاب إلى المدرسة الداخليّة، بعد أن دجا الليل، فأنبّتها رئيسة الدير تأنيبًا عنيفًا جعلها تمرّ بأزمة عصبيّة طوال أيّام. لقد رفضتْ، هي الأولى في صفّها، اللامعة في العزف على البيانو والكتابة بالفرنسيّة والعربيّة، أن تُعامَل كسائر الطالبات. لكنّ كبرياءها أبَت عليها إلّا أن تتظاهر بالابتسام.

كانت أصعب الأيّام عليها، في تلك المرحلة الدراسيّة، أيّام الأعياد بعد أن تنصرف زميلاتها إلى منازلهنّ في أحضان أهلهنّ، وتبقى هي وحدها أسيرة الكتاب والقفص، فكتبَتْ في يوميّاتها وصفًا لجوّها المعنويّ القاتم وهي في غرفة الموسيقى تحاول أن تَذهَلَ عن واقعها:

"ما كُدت أَمسُّ أصابع العاج حتّى سحبْتُ يَدَيّ. ما أشدّ البرد في البيانو! بل البرد في يديّ وروحي. البرد في وحدتي وغربتي. إنّي جليد، ولكنّي جليد يتعذّب، وأشعر بأنّ كلّ ما في الدير جليد حيّ ينبض، يتعذّب، ويبكي".

وفيما هي على هذه الحال، وقد ألقت رأسها سائمة على خشبة البيانو، اجتذبتها يد لطيفة داعبت خدّها وشعرها، يد راهبة شاءت أن تؤاسيها، فصرخت بها: "أتركيني لا أريد أن يشفق عليّ أحد". وهل ترضى فتاة لها مثل طبائعها أن تكون موضع شفقة؟

في الكتابة عزاء

كان القلم والكتاب رفيقَي هذه الطالبة المستوحِدة المتألِّمة. أحبُّ الكتّاب إليها كانوا الرومنسيّين الفرنسيّين والإنكليز، ولا سيّما لامارتين وبيرون، فحاولت في يوميّاتها أن تحذو حذوهم.

في الربيع كانت إشراقة الطبيعة تنعكس في صميمها، فتبدِّد بعض عبوسه. لكنّ الشتاء كان، هو أيضًا، ينعكس على نفسها القَلِقة فيزيدها توتّرًا، فتكتب: "الشمس لم تُشرق اليوم. إنّها تختفي وراء الغيوم، وتتلفّع بدثار من الأسرار. الجوّ رماديّ الأديم، والأفق متشابه الألوان في جميع جهاته، والأرض مغتمّة حسرى، والمطر على وشك الانهمار. هذا الطقس يُلقي على نفسي غشاء من الاكتئاب والتخدُّر. عندما يكون الجوّ رماديًّا كذلك يكون وجداني. إنّي أؤثر الشمسَ بازغةً تُبهِج العالم. والسماء أؤثرها صافية، فهي أفضل عندي من أن أرى الرياحين منَكّسة الرؤوس، والورود ذابلة الكؤوس، تحت دفق المطر"[1].

لمّا أتمّت ماري آخر مرحلة من مراحل الدراسة في عينطورة، قضت عامًا دراسيًّا في معهد الرهبات اللعازاريّات في بيروت، قبل أن تعود إلى والدَيها في الناصرة.

وألقت نظرتها الأخيرة على جبال لبنان، وودَّعت الصيف المولّي، والمساء الأخير في بيروت، قبل أن تستقلّ الباخرة إلى فلسطين.

"إنّي لأشعر بكآبة تلازمني وتحزّ في أعماق نفسي، وعلى هذه الورقة البيضاء أخطّ آخر وداع حزين فتتسابق إلى عينيّ الدموع".

[1] من يوميّاتها في عينطورة وقد كتبتها بالفرنسيّة ثمّ عرّبت بعضَها.

من الناصرة إلى القاهرة

لم تَطُلْ إقامة ماري زيادة في الناصرة. هناك، في كنف أبوَيها، تبدَّدَت وحشتها، فاتّسمت يوميّاتها بلون ورديّ على خلفيّة رماديّة. كان عليها أن تفكّر بمستقبلها وقد بدأت تتجاوز العقد الثاني من عمرها. وتخلّت عن خطيبها، نسيبها نعّوم، لأنّه عاد لا يحقّق حلمها بالشراكة الزوجيّة التي أرادتها حوارًا دائمًا بعد أن تقدّمت هي في ثقافتها، وظلّ هو يراوح مكانه.

كانت إذا أتعبَتْها المطالعة والكتابة تمتطي جوادًا وتتنزّه في مرج ابن عامر، فتطلق لخيالها ولفرسها العنان.

في خريف سنة ١٩٠٧ قرّر الياس زيادة أن ينتقل مع عائلته إلى القاهرة حيث مجال العمل أرحب، وحيث الجو الثقافيّ يساعد وحيدتَه على تحقيق أمنيتها كأديبة لامعة.

وكان فراق الناصرة لا يقلّ وطأة عليها من فراق لبنان الذي كتبتْ حين ابتعدتْ عنه: "إنّي لأجهل لماذا يشقّ عليّ الابتعاد عن لبنان! إنّه وطني، والطبيعة فيه عذبة، والمناظر خلّابة".

ثمّ كتبتْ وهي تودّع الناصرة:

"يصعب عليّ أن أبتعد عن مكان قضيتُ فيه بعض أيّام، أو بعض ساعات، فكيف لو قضيت فيه سنوات، ذلك لأنّي أترك فيه فلذات من صميمي، بعضًا من ذاتي أحنّ إليه... لبنان وطني، والناصرة مسقط رأسي، ومصر مَغامرة في المجهول".

في القاهرة، حيث لا أهل لها ولا أصدقاء، شعرت ماري بالغربة أكثر من ذي قبل، لكنّها حاولتْ أن تذهل عن غربتها بالكتابة والقراءة والموسيقى: "إنّ الموسيقى لتخاطبني بلغة ليس أقرب منها إلى إدراكي وعواطفي. إنها تُنيلني أجنحة، وتطير بي إلى عوالم لا يطرقها غيرها. أشكرك اللهمّ لأنّك فطرتني على حبّ الموسيقى وحبّ الجمال!"

خطر لها أن تتخصَّص في دراسة اللغات الأجنبيّة لأنّ صديقًا لأبيها أَمَّلها بمستقبل باهر. بدأت تدرس الإنكليزيّة، لغة مصر الثانية حينذاك، ثمّ الألمانيّة على يد مستشرِقة. ومع هذا ما تخلّت عن إتقان الفرنسيّة والعربيّة، لا سيّما وأنّها بدأت تُعيد النظر في يوميّاتها وقصائدها بالفرنسيّة كي تنشرها في كتاب.

وكان لا بدّ لها أن تجد عملًا في هذه المرحلة الانتقاليّة لتساعد أبوَيها. فلمّا عَرضَ عليها إدريس باشا راغب أن تعلّم بناته الفرنسيّة ما تردّدت أبدًا في القبول.

وكان إدريس راغب قد اشترى جريدة "المحروسة" التي توقّفت عن الصدور منذ سنوات، فطلب من الياس زيادة أن يمارس الصحافة فيها. وفي سنة ١٩٠٩ تخلّى له عنها، فانفتحت للفتاة الكبيرة الطَّمُوح، ولأبيها، آفاق جديدة، وجاء اليُسْرُ بعد عُسْرٍ طويل.

حنين إلى الجذور

لمّا أقبل الصيف سنة ١٩١٠ ، واشتدّ الحرّ في القاهرة، لجَّ الحنين بماري إلى لبنان، فجاءت إليه وأقامت في بلدة برمّانا، وانطلقت منها متنقِّلة في جبال لبنان التي "عصبَتْ هامتَها أكاليلُ من المرجان، وغمرَتْ أعماقَ أوديتها الظلالُ". وفي مطلع الخريف، الخريف الوسنان على حدّ قولها، الذي أحبَّتْ منه "النسائم الكئيبة المتناوحة والأمساء الخاشعة"، كما أحبَّتْ منه ما يُشيع فيها "[...] من نفحات كأنّها آخر ما ترسله القيثارة المحطَّمة"، ودّعت ليالي لبنان التي طَبعت في إنسان عينها غورها السحيق، ووّدعت رقرقة أنهاره التي أَجْرَتْ فيها أنهار المحبّة، فغمرت ضفّاتها الأزهار وشاعت في جوّها الأنغام.

عادت إلى القاهرة مُجَدِّدَة الحيويّة، فراحت تُعِدُّ مجموعتها الشعريّة بالفرنسيّة للنشر.

أوّل الغيث

اختارت ماري لباكورتها عنوانًا طريفًا يوافق مضمونها تمامًا، هو"أزاهير حلم"[1]. بيد أنّها ما شاءت أن توقِّعها باسمها، وهي ما زالت مجهولة في عالم الأدب، فآثرت أن تختار اسمًا مستعارًا يلفت النظر، فقرّ رأيها على إيزيس كوبيا[2].

كان للنجاح الذي لاقتة هذه "الأزاهير" أثرها الكبير في تشجيع الأدبية الناشئة على الاستمرار في الكتابة. لكنَّها فضلَّتْ أن يكون جلُّ نتاجها بالعربيّة، لا سيّما وأنّها تمرّسَت على الكتابة بهذه اللغة بفضل ما كانت تنشره في الصحف، ويصحِّحه لها لطفي السيّد.

سُئلَت كيف بدأَتْ تكتب بالعربيّة، فأجابَتْ: "في مدرسة راهبات عينطورة كنَّا نُكلَّف بإلقاء خطب تُنشئها لنا المعلّمات، ونمثِّل أحيانًا بعض القصص القصيرة. فكان هذا يستفزّني إلى التأليف والخطابة حتّى اشتُهِرْتُ في المدرسة بجودة الإلقاء بالفرنسيّة والعربيّة، وظفرتُ بالجائزة الأولى في الإنشاء في هاتين اللغتين. ولمّا جئنا إلى مصر، وتسلَّم أبي تحرير "المحروسة"، أخذت أنشرُ فيها بعض المقالات، وشرعتُ منذ ذلك الوقت أتعمَّق في درس أصول العربيّة، وقام في ذهني أن أكون كاتبة".

قديكون من الحوافز التي دفعتها إلى الكتابة أيضًا تأثّرها بلبيبة هاشم[3] لمّا سمعَتْها تُلقي خطابًا في الجامعة المصريّة عن حرّيّة المرأة، وكيفيّة تحقيقها في البيئة الشرقيّة المحافِظة. لقد آلمها، وهي تصغي إليها باهتمام شديد، أن ترى الحاضرات حولها، إلّا أقلّهنّ، يتلهّين بالهمس والمزاح عن الإصغاء، فكان أوّل مقال ظهر لها بالعربيّة نقدًا جريئًا لتأخُّر المرأة عن العمل لنيل حرّيّتها وحقوقها.

ما شاءت ماري زيادة أن توَقّع مقالاتها بالعربيّة بالاسم المستعار الذي اختارته لمجموعة شعرها بالفرنسيّة، بل استعانت بأمّها التي أشارت عليها بأن تختصر اسمها ماري بالحرفَين الأوّل والأخير منه، أي "مَيّ".

---

[1] Fleurs de Rêve

[2] Isis: إيزيس إلهة مصريّة ترمز إلى العذراء مريم، وكوبيا ترجمة زيادة باللاتينيّة.

[3] أديبة لبنانيّة (١٨٨٠–١٩٤٧) من كفرشيما من آل راضي. انتقلت مع عائلتها إلى مصر حيث تتلمذتْ على الشيخ إبراهيم اليازجي، وتزوَّجَت عبده هاشم، وأنشأت مجلّة "فتاة الشرق" سنة ١٩٠٦. من مؤلَّفاتها عدد من الروايات، منها: **قلب الرجل**، و**حسنات الحبّ**، و**جزاء الخيانة**، **وجزاء الإحسان**، **وشهيد المروءة والوفاء**، و**كتاب في التربية**. وترجَمَت عن الإنكليزيّة روايتَي: **شيرين**، **وتيمان**.

في الكوخ الأخضر

في صيف سنة ١٩١١ عادت مَيّ إلى لبنان، وكانت شهرتها، هذه المرّة، قد سبقتها إليه. وطاب لها أن تُقيمَ في ضهور الشوير حيث تحلَّق حولها عدد من الأدباء. وشاقها أن تقضي فرصتها في حضن الطبيعة، فسعَتْ لأَنْ يُبنى لها كوخ من خشب الغصون، ويُسقّف بالأعشاب اليابسة، ولا يكون في داخله من حطام الدنيا سوى مقعد وطاولة، عليهما كتب قليلة. وحقَّق فارس مشرق رغبتها هذه، فأسْمَتْ عرزالها "الكوخ الأخضر"، لأنّها جلّلت جدرانه من الداخل بنسيج أخضر ينسجم مع الأفنان المخضوضِبة الغضَّة التي أحاطته من كلّ جانب[١].

في هذه العزلة المختارة طالعت كتاب ماكس مولر "الحب الألمانيّ". أُعجبَتْ بأسلوبه ومضمونه، فراحت [تترجمه إلى العربيّة] تحت عنوان "ابتسامات ودموع". وتأمّلَتْ في معنى وجودها: "فطفقْتُ أُلقي على نفسي أسئلة مُنطلِقة من جهلي المتعطِّش إلى الإرتواء: مَن أنا؟ ما هو موقفي في الدنيا؟".

وطالعَتْ أيضًا بواكير جبران خليل جبران، فاستهواها أسلوبه النابض بالحياة. كما طالعَتْ بعض ما كتبه أمين الرَّيحاني في "ريحانيّاته" الأولى، فاستزادت. وكان الأمين من روّاد كوخها الأخضر، فدعاها مع أبوَيها إلى صومعته في الفُرَيْكة، فلبّتْ بشغف.

ولمّا رجعت إلى مصر استأنفت الكتابة في "المحروسة"، وفي صحيفة "له بروغرة"[٢] بالفرنسيّة، ثمّ كَتَبَتْ بالإنكليزيّة بتوقيع رأفت خالد في "الإجبشن ميل"[٣].

جبران الساحر

من أبرز الكتّاب الذين راج نتاجهم في القاهرة جبران خليل جبران، ولا سيّما في أوساط الناشئة الظامئة إلى الأدب الحيّ الذي يواكب العصر. وأولعت مَيّ ولعًا شديدًا بكلّ ما كانت تقرأه من قصص جبران، وخواطره، رغم تحفّظها حول بعض آرائه. فخطر لها، بعد تردّد، أن تكتب إليه، وتُعْرِبَ له عن إعجابها بأدبه، فوجَّهت إليه رسالتها الأولى في ٢٩ آذار سنَة ١٩١٢. استهلتها بالتعريف عن نفسها: أمضي مَيّ بالعربيّة وهو اختصار اسمي ماري، وأمضي إيزيس كوبيا بالفرنجيّة، غير أنّ لا هذا اسمي ولا ذاك. إنّي وحيدة والدَيّ وإن تعدّدت ألقابي". وأفاضت في الحديث عن النهضة الأدبيّة في مصر، وعن كتاباتها هي، وطريقة حياتها، وعن تأثير جبران في نهضة الآداب العربيّة المعاصرة، وأثنَتْ على نظرته التقدّميّة، وأسلوبه المميّز بالخيال المجنّح والعاطفة القويّة.

ما تأخّر جواب جبران بضبابيّته المشوّقة، فتلقّته وقد ضمّ إليه نسخة من "الأجنحة المتكسِّرة"، روايته التي ظهرت في مطلع تلك السنة.

واستمرّت المراسلة بينهما إلى أن قطعت الحرب العالميّة الأولى المواصلات بين أميركا ومصر. ثمّ استؤنفت بعد نهاية الحرب، فكانت من أطرف ما كتبه العشّاق الروحيّون، ودامت حتّى موت جبران عام ١٩٣١ بدون أن يلتقيا قطّ.

---

[١] مقدّمة "ابتسامات ودموع".

[2] Le Progrès Egyptien

[3] Egyptien Mail

صالون مَيّ

سنة ١٩١٣ قرّرت الجامعة المصريّة إحياء حفلة تكريميّة لخليل مطران، فطلبت إلى جبران أن يشارك في هذا التكريم فلبّى، لكنّه اعتذر عن الحضور، فعُهد إلى مَيّ أن تُلقي كلمة جبران وعنوانها "الشاعر البعلبكيّ". فكانت "أوّل مرّة وقفَتْ فيها فتاة عربيّة تتكلّم في حفلة رسميّة". بعد أن تَلَتْ مَيّ "الأسطورة" التي كتبها جبران لهذه المناسبة، ألقَتْ كلمة حيّت بها "شاعر القُطرَين"،وكان لها وقعها البليغ في نفوس الحاضرين. وبُعَيدَ هذه الحفلة التكريميّة أنشأَتْ مَيّ صالونها الأدبيّ برئاسة إسماعيل صبري باشا.

كانت مَيّ تعقد ندوتها الأسبوعيّة في صالون بيتها الوالديّ كلّ يوم ثلاثاء،وتستقبل فيها أبرز حَمَلَةِ القلم في مصر وسائر البلدان العربيّة، يتباحثون في شؤون الفكر والثقافة والمجتمع، ويتبادلون الرأي في نتاجهم في جوّ من الثقة والتفاهم.

تولّتْ مَيّ إدارة الندوة بلباقة وخبرة ففرضت احترامها، وهي بعد في عزّ شبابها، على أقطاب الفكر والفنّ رغم تبايُن آرائهم وطبائعهم.

كان من روّاد الندوة المداومين وَلِيّ الدين يَكَن، طه حسين، أنطون الجميّل، داود بركات، إسماعيل صبري، لطفي السيّد، مصطفى عبد الرازِق، خليل مطران، عبّاس محمود العقّاد، منصور فهمي، شبلي الشميّل، مصطفى صادق الرافعيّ، يعقوب صرّوف، إيمي خير، وبركات بركات. وكان من ضيوفها كتّاب من بلدان شتّى، ولا سيّما المستشرقون.

واستمرّ هذا الصالون ملتقى الأدباء حتى نُكبت مَيّ بموت والدَيها.

في الجامعة المصريّة

خلال الحرب الكونيّة الأولى التحقت مَيّ بالجامعة المصريّة حيث تعمَّقَتْ في دراسة الفلسفة، والأدب العربيّ، طوال ثلاثة أعوام، لكنّها لم تُهمل ندوتها، ولا مقالاتها الدوريّة في الصحف.

في ذلك العهد لم يَكُنْ في الجامعة المصريّة أيّ فتاة مصريّة.كان فيها الفرنسيّات والإنكليزيّات والإيطاليّات واليونانيّات والروسيّات.

فكانت مَيّ قِبْلَة الأنظار لمَا تحلّت به من توقُّد الذهن والجاذبيّة.

لم تَكُنِ الجامعة، بالنسبة لمَيّ، مَنْهلِ علم فقط بل "مهبط وحي" لها، فكانت تدخل إليها قبل ابتداء الدروس، فتسترسل في الأحلام والتأمّلات:"كم من فكر إنسانيّ في ما يحيط بي من آثار الحياة. وكم من تأمّل التقط نظري موضوعَه بين وُريقات شجرة خضراء تتمايل أمام النافذة، وكم من حلم لمحتُ خطوطَه مرسومة في جوّ قاعة الدرس، وألوانَه متخلِّلة خيوط الأشعة المطلَّة علينا... كلَّما رأيتني وحدي، في هذه الغرفة، شعرتُ بأنّ في جوّها روحًا هي مجموع أرواح النوابغ الحاضرين ههنا برسومهم، وبخيالات الأفكار المطلّة على أحداقهم"[١].

في الجامعة المصريّة تعرّفت إلى هدى شعراوي، زعيمة النهضة النسائيّة في مصر، فعملتا معًا في حقل النهوض بالمرأة.

[١] مذكّرات الجامعة المصريّة.

خطيبة بارعة وشاعرة قَلِقَة

قلّما عرفت المنابر خطيبة ألهبت مشاعر الجمهور في عصرها كما ألهبتها مَيّ. قالت جوليا طعمة دمشقيّة[١]، وهي تسمعها تخطب: "لم أرَ في حياتي خطيبًا اشرأبَّتْ إليه الأعناق، وشخصت إليه الأحداق، كمَيّ. كانت، وهي تخطب، كأنّ أجفان سامعيها مشدودة إليها بالأهداب". لقد خلا كلامها من مُغْرَة[٢] اللَّحن. وكانت إشاراتها عفويّة رشيقة، ولم يكن صوتها بالأجشّ الخشن، ولا بالضعيف أو الحادّ، بل كان حارًّا رخيمًا يحمل سر جاذبيّتها الشخصيّة. وعند الكلام كانت عيناها تتأجّجان حميَّة، فتفرض الانتباه الكلّيّ.

كلُّ مَن حول مَيّ يبتسم لها، ويُبدي إعجابه بعبقريّتها، لكنّها مع هذا ظلّت قَلِقَةً لا تعرف للطمأنينة الحقَّة معنًى. ظلَّت وحيدة القلب، وحيدة الروح، تتوق إلى المطلق ولا تستقرّ. لطالما ردَّدت، وهي في حالة انقباض وسأم: "طائفة كبيرة من البشر تعيش حياتَين في وقت معًا: حياة ظاهريّة واقعيّة مع الناس، وحياة باطنيّة مع أمانيها وذكرياتها والأحلام". لكأنّها بهذا الكلام عبّرت عن نفسها. لم تكن هي إيّاها دومًا في صالونها الأدبيّ، ولا في الحفلات والمجالس، بل كانت هي إيّاها في نعيم تخيّلاتها، في معايشتها الوهميّة لجبران، وفي استقطار أحاسيسها مادّة لقلمها.

جاءت مرّات إلى لبنان[٣]، وفي كلّ مرّة كانت نجمة حلقات التكريم، تُلقى خطب الثناء عليها من كلّ صوب، ويتغنّى الشعراء بحسنها وذكائها وحضورها الفتّان.

في رومة

في صيف ١٩٢٦ سافرت مَيّ إلى إيطاليا، وساحَتْ في أقطارها، وزارت معارضها ومتاحفها وروائعها الأثريّة ومكتباتها، واجتمعت إلى عدد كبير من كتّابها وفنّانيها، واستوقفتها منحوتات برنيني التي أضفَتْ على عيون رومة مسحة جمال فريدة. وكثيرًا ما وقفت أمام هذه العيون لتناجيها:

"كم طلبَ عطشي الارتواءَ من المثول لديكِ، يا عيون رومة. ولكم سألْتُ خريرَكِ أن يُنسيني نفسي الجريحة!

"...لقد رجعْتُ إلى حالي فما ارتويت بقطرة إلّا كانت لهيبًا في الأُوَام[٤] الذي لا يرتوي، وما فزْتُ بفهمٍ جديد إلّا كانت زكاة لعاطفة الحنان التي لا تشبع فيّ ولا تكتفي".

---

١ أديبة لبنانيّة أصدرت مجلّة "المرأة الجديدة".

٢ ["المُغْرَة" لون يضرب إلى الحُمْرَة، كالمغرَة بالغين (البستانيّ، المعلّم بطرس: **محيط المحيط، قاموس مُطوَّل للغة العربيّة**، طبعة جديدة، بيروت، مكتبة لبنان، ص ٨٥٦). وهي تُستخدَم في الصباغ والتلوين. واللَّحْن، هنا، هو التَّطريب في القراءة، والترنيم فيها (المرجع نفسه، ص ٨١١). والمعنى المقصود أنّها لم تَكُنْ تلجأ إلى تلوين كلامها أو صباغته بالتطريب والتلحين، كما يفعل العديد من الخطباء أثناء إلقاء خطبهم].

٣ جاءت إلى لبنان في عامي ١٩٢٢ و ١٩٢٣، وفي زيارتها الأخيرة مضت إلى سوريا، ثمّ زارت لبنان مجدَّدًا في سنة ١٩٢٥.

٤ ["الأُوام العطش، أو حَرُّهُ، والدخان، ودُوَار الرأس، وأن يضجَّ العطشان من العطش": البستاني، المعلّم بطرس، **محيط المحيط،قاموس مُطوَّل للغة العربيّة**، طبعة جديدة، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٨٧، ص ٢٢].

وعادت من إيطاليا إلى القاهرة وهي أشدّ ظمأً من قبل، فكتبَتْ إلى جبران تروي له تفاصيل رحلتها، وتبثّه لوعة الحرمان، وتلحّ عليه بالرجوع إلى وطنه، بعد أن علمَتْ بمرضه الطويل، لأنّ في الشرق دواء سقمه. لكنّ جبران لم يستجب لهذا النداء، لأنّ العلّة، كما صرّح لإميل زيدان، كانت تنهشه في الصميم.

وينقضي الزمان على وتيرة واحدة، والسأم يرسخ في أعماق مَيّ، فتحاول خداعَه بالعمل المرهق. فإذا هي تصرف ساعات في مطالعة كبار الفلاسفة، ولا سيّما كانط وفرويد وسبينوزا، وأحيانًا في درس مبادىء مناجاة الأرواح. وينعكس الإرهاق على أعصابها توتّرًا فإذا هي، وقد جاوزتْ سنَّ الأربعين، تناجي مرآتها بألم، وتتذكّر ما كتبتْه ذات يوم في مدرسة عينطورة:

"عجوز أنا! لا. أتراني أصل إلى هذا العمر!"

آفاق تتلبَّد

منذ مطلع سنة ١٩٣٠ بدأت آفاق مَيّ المشرقة بالأمس البعيد، تتلبّد. عامذاك مات صديقها وأستاذها يعقوب صرّوف، وبعد سنة مات جبران، ثمّ مات والداها. فإذا الفتاة الوحيدة، المدلَّلة، أمسَتْ وحيدة بدون دلال في جوّ يزداد عبوسًا مع الأيّام.

أفاقت من خَدَرِ آلامها وأحزانها على واقع قاتم. وجدت نفسها شبه منبوذة، ومنفردة في البيت العائليّ الذي غصّ بروّاد صالونها، وفاض بحنان والدَيها وخلّانها، وعوّدها العيش الهنيء في كنف والدَين غمراها بعطفهما. اعتزلت المجتمع شيئًا فشيئًا، وزال من ذهنها اعتقادها الماضي "بأنّ النفس القويّة تزيد بهاءً بعد التغلّب على الكروب، والعين الجميلة تزيد تألُّقًا بعد سكب الدموع". ووصف صديقها طه حسين وحشتها المتزايدة بقوله: "أخذ ميلها إلى العزلة يظهر بعد أن فقدت والدَيها، وبعد أن غمر الحزن نفسَها المشرِقة، ولكنّها لم تقطع صلتها بالناس فجأة، وإنّما قلّلت لقاءهم، وتجنّبت ما يدعو إلى هذا اللقاء... حتّى أصبح لقاؤها مقتصرًا على الأصدقاء الأَدْنِين". وكان طه حسين في طليعتهم.

حسبَتْ مَيّ أنّ في الوحدة بلسمًا لكلومها المعنويّة، لكنّها سرعان ما أدركت أنّ أقسى الساعات التي يمرّ بها الحزين هي تلك التي ينطوي فيها على ذاته، ويجترّ مآسيه. فخطر لها أن تهجر منزلها الذي غصّ بذكريات ماضٍ عزيز عليها. سافرتْ إلى فرنسا في خريف سنة ١٩٣٢، وجالت في مناطقها، ثمّ إلى إنكلترة وزارت أكسفورد ومدينة شكسبير، واتّصلت بأدبائها تتلمّس في كلّ مكان عزاءً يدوم.

ملَّتْ السياحة. رجعَتْ إلى مصر، وانتقلَتْ إلى منزل آخر. وراحت تَذهَل عن نفسها [بترجمة] روائع أعلام الفكر اليونانيّ [إلى العربيّة]، وتطالع آثار غوته وشيلر وشاتوبريان، حتّى ضاق بها الجوّ من جديد، فسافرت إلى إيطاليا حيث درسَتْ في جامعة بروجه أصول اللغة الإيطاليّة، ثمّ ترجمت عنها. وتكرّرت رحلاتها، لكنّها كانت تحوم في دائرة مفرغة فبدأتْ، منذ أواخر سنة ١٩٣٤، تظهر عليها عوارض الإعياء العقليّ والجسديّ، فعجزت عن الكتابة، واضطرّت إلى الاستعانة بيد سكرتيرة صديقة. وانزوت متنسِّكة في غمرة أحلام مريضة، وتصوّرات غريبة.

وكان طه حسين يتردّد إلى منزلها ويؤاسيها، فعرض عليها مرّات أن تخرج من دارها وتتنزّه، فاستجابت وقالت له: "إن كنْتَ تريدني على الخروج فاصحبني إلى الأهرام، فإنّي أحبّ أن أشاهد هذه الآثار، وأن أَقفَ موقف عِبرَة وأتّعظ أمام أبي الهول".

ولمّا اشتدَّت عليها السويداء، طلبت من نسيبها الدكتور جوزف زيادة أن يأتي إليها، فلبّى طلبها وعاد بها إلى لبنان.

"خذوني إلى قريتي الصخراء الشجراء، الراقدة تحت حنايا الأفق على هدهدة الناي. لستُ أطلب من أرضي إلّا القليل من التراب. إنّ المساء يرجع بالكلّ إلى البيت".

في العصفورية

في بيروت طُبِّق على مَيّ الحَجْر. لم تتقدَّم صحيًّا في الفترة التي قضتها في دارة نسيبها، فنُقِلَتْ، من حيث لا تدري، إلى مصحّ العصفوريّة، لأنّه لم يكن بعد في لبنان مصحّ للأمراض العصبيّة. فلمّا وَعَتْ ما صارت إليه بين المجانين ثار ثائرها. وبقيت في العصفوريّة تسعة أشهر رفضت خلالها أن تقابل أحدًا. ودوّنت انطباعاتها في كتاب ظلّ مخطوطًا عنوانه "ليالي العصفوريّة".

غادرت مَيّ المستشفى على أثر حملة عنيفة شنّتها الصحف، وأقامت في منزل قرب الجامعة الأميركيّة حيث كان يزورها بعض الأوفياء من أصدقائها القدامى.

أذهلت مَيّ جميع من عرفها أوقرأ لها وسمع عنها لمّا ألقَتْ، في ٢٢ آذار سنة ١٩٣٨، محاضرةً في الجامعة الأميركيّة عنوانها "رسالة الأديب إلى الحياة العربيّة". وخرج الجمهور من المحاضرة وكأنّه يُفيق من حلم عميق.

حين استعادت مَيّ بعض حيويّتها، دعاها أمين الرَّيحاني إلى منزله في الفُرَيْكة. ثمّ انتقلت إلى منزل آخر قريب منه.

في السهرات الحميمة كانت تنشد لأخصّائها بعض قصائدها بالفرنسيّة، وتروي مأساتها في العصفوريّة، ثمّ تعود إلى فكرة لازَمَتْها هي فكرة الاضّطهاد. وفي آخر الصيف عادت إلى بيروت لكي تعدّ عدّة الرجوع إلى مصر.

المرحلة الأخيرة

أقامت مَيّ في القاهرة في شقّة أرضيّة متواضعة لا تستقبل إلّا القليلين من أصدقائها. ولمّا ضاقت بها الدنيا عادت لا تطيق أحدًا، ولا تطيق حتّى الرقاد. وكان عزاؤها الوحيد في محنتها رسائل الخلّان، ولكنّ القدر حرمها من هذا العزاء. ففيما هي تتوقّع أجوبة على رسائلها إلى أمين الرَّيحاني، وفليكس فارس، بلَغَها نَعْيُهُما، فتجسّم أمام عينيها شبح الغروب.

"الجماهير السعيدة ترقب أفاعي النور التي شرعت تتلَّوى في الظلام. ترقبها وتهتف. والشيخة تجيل الطَّرْف وتبكي.

"هذه هي الطاولة التي تتناول عليها طعامها الغَثّ الجافّ.

"وهذا هو المقعد الذي طالما جلسَتْ عليه تستطلع خبايا الليل البهيم.

وهذه هي المرآة الكالحة البلّور التي تُرْجِعُ صورة وجهها الكئيب، ودموعها الغريزة.

"وجيع. وجيع مشهد دموع اليأس في المرآة الصلبة الباردة".

في صباح التاسع عشر من تشرين الأوّل سنة ١٩٤١ لفظت مَيّ أنفاسها الأخيرة، وكان على الطاولة قرب سريرها كُتب أربعة هي: غرازييلّا، ودليل حلمي التائه، وصورة دوريان غراي، وكتابها هي باحثة البادية.

سار في جنازتها نفرٌ من الأصدقاء. وأمام الضريح رثاها لطفي السيّد. وكان الصمت شاملًا، فما استطاع لسانٌ أن يحلّ عقدته. وخُيِّل للموكب الحزين أنهّ يسمع صدى لكلمات مَيّ من خلال القبر.

"هذا قبر فتاة لم يرَ الناس منها غير اللطف والبسمات وفي قلبها الآلام والغصّات. لقد عاشت وأحبّت وتعذَّبت وجاهدت ثمّ قضت".

جاء في مقال مَيّ "دمعة على المغرِّد الصامت":

"وردةُ أثيرٍ تنفسَّت فعطّرَت وأسكرَت ثمّ ذبلَت".

هكذا بَدّأت حياتها وهكذا انتهَت.